مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للــه، والصــلاة والســلام على رسول الله، أما بعد:

فإن الأمة تمر بأحوال غريبة، وأهـوال عصيبة، فالخطوب تحيط بها، والأمم من كل مكان تتداعى عليها.

وإن مما يلفت النظر في هذا الشــأن غفلة الأمة عن التوبة؛ فـــإذا تحـــدث متحدث عن التوبة تبادر إلى الذهن توبة الأفـــراد فحســب، أما توبة الأمة بعامة فقلَّ أن تخطر بالبال.

وهـذا من الأخطـاء في بـاب التوبــة؛ ذلك أن ســنته_عز وجــل_ في الأفــراد، وفي مغفرته للتـــائبين وعفـــوه عن المــــــــــــــــــــذنبين _ هي هي ســنته_ ســبحانه_ في الأمم والشعوب.

فالأمة الـتي تعـود إلى طريق الرشـاد،

وتَصْــــــــدُق في التوبة والإنابة إلى رب العبــاد_ يفتح الله لهــا، ويرفع من شــأنها، ويعيدها إلى عزتها ومجــدها، وينقــذها من وهدتها الــتي انحــدرت إليهــا، وينجيها من الخطوب التي تحيط بهــا؛ نتيجة الــذنوب التي ارتكبتها، والمنكرات الــتي أشــاعتها من شــرك، وبــدع، وحكم بغــير ما أنــزل اللــه، ومــوالاة لأعــداء اللــه، وخــذلان لأوليائــه، وتقصــير في تبليغ دعــوة اللــه، والأمر بــالمعروف والنهي عن المنكـــر، وتركٍ للصلوات ونحو ذلك مما هو مؤذن بالعقوبــــــة، وحلــــــول اللعنة كالربا والفســوق، والمجــون، ونقص المكاييل وغير ذلك.

فــإذا تــابت إلى ربها متعها الله بالحيــاة الســـعيدة، وجعل لها الصــولة والدولـــة، ورزقها الأمن والأمـــــــان، ومكن لها في الأرض.

قال_ تعالى_ :[وَعَـدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْــــــتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً] النور: 55.

وإذا أردت مثالاً على توبة الأمة من القرآن الكريم فانظر إلى قوله_تعالى_: [فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ] يونس: 98.

وهؤلاء القوم الذين ذكروا في هذه الآية هم قوم يونس _عليه السلام_ وقريتهم هي نينوى التي تقع شرقي مدينة الموصل في شمالي العراق.

ومعنى الآية_ كما يقول المفسرون_ : أن قوم يونس _عليه السلام_ لما أظلهم العذاب، وظنوا أنه قد دنا منهم، وأنهم قد فقدوا يونس _ قذف الله في قلوبهم التوبة، وفرقوا بين كل أنثى وولدها، وعَجُّوا إلى الله أربعين

ليلة_ أي رفعوا أصواتهم بالتلبية والدعاء_ فلما علم الله منهم صـــدق التوبة كشف عنهم العــذاب، وقــال: [وَمَتَّعْنَــاهُمْ إِلَى حِينٍ]
يونس: 98.

أي لم نعاجلهم بالعقوبة، فاستمتعوا بالحيــاة الــدنيا إلى حين ممــاتهم وقت انتهاء أعمارهم.

فما أحوج أمتنا اليوم أن تعج إلى الله منيبة تائبة، ليرضى عنهـا، ويرفع عنها ما هي فيه من الذلــة، والمهانــة، والخيبــة، والتبعية لأعدائها.

هــذا ومما يجب على الأمة في هــذا الباب زيادة على ما مضى ما يلي:

1_ التوبة من الإسـراف: فالإسـراف نــذير شــؤم، ومــؤذن هلاك؛ فهو يفضي إلى الفاقـــة، ويـــنزل بأهله إلى طبقة المقلين أو المعدمين.

والإســـراف في الـــترف ينبت في النفـوس أخلاقـاً مرذولة من نحو الجبن، والجــور، وقلة الأمانــة، والإمســاك عن

البذل في وجوه الخير.
أما أن الإسراف في الترف يدعو إلى الجبن فلأنَّ شـِدَّةَ تعلق النفـوس بالزينة واللذائذ يقوِّي حرصـــها على الحيـــاة، ويحملها هـذا الحـرصُ على تجنب مواقع الحروب، وإن كانت مواقف شرف وذود عن الدين، والنفس، والمال، والعرض.
وأما أن الإسـراف في الـترف يسـهل على النفـــوس ارتكـــاب الجـــور فلأن المنغمس في الـــترف يحـــرص على اكتساب المال ليشبع شهواته، فلا يبـالي أن يأخذه من طرق غير مشروعة، فيمد يـده إلى الاسـتيلاء على ما في يد غـيره من طريق الرشـــــوة، أو من طريق الغصب إن كان ذا سلطان وقوة.
وأما أنه يَـــذْهَبُ بالأمانة فلأن الغريق في الـترف إنما همُّه الوصـولُ إلى زينة أو لـــذة، أو مطعم ونحـــوه_ كثـــيراً ما تدفعه هذه الشـهوات إلى أن يخـون من ائتمنه، فيمد يده إلى المال الــذي ائتُمن

عليه، وينفقه في شهواته الطاغية.

وأما أنه يمسك الأيدي عن فعل الخير فلأن من اعتاد الترف حتى أخذ بمجـامع قلبه كـان أعظم قصدِه من جمع المـال إنفاقَه فيما يَلَذُّه من مأكول، أو يتزين به من نحو ملبوس أو مفروش.

لـذلك كـان الغـالبُ على المـترفين المســرفين قبضَ أيــديهم حيث يبسط غيرهم يده؛ إسعاداً لـذوي الحاجـات من الفقـراء والمنكـوبين، أو إجابة لما تـدعو إليه المروءة والمكارم.

ومن هنا نستبين أن للإسـراف سـيئةً أخرى هي قطع صلة التعـاطف والتـوادد بين كثير من أفراد الأمة.

ولهـذا تجد من الموسـرين المـترفين من ينفق الأمــوال الطائلة في ســبيل لذَّاته وشياطينه، وإذا سـئل بـذل القليل في مشروع جليل أعرض ونأى بجانبه.

هـذا وللإسـراف في الـترف أثر كبـير في إهمال النصيحة والدعوة إلى الحـق؛

ذلك أن من اعتــاد التقلب في الزينــة، وألفت نفسُه العيش الناعم_ يغلب عليه الحـــرص على هـــذا الحـــال؛ فيتجنب المواقف الــتي يمكن أن تكــون ســبباً لفوات بعض النعيم.

وللإسراف أثر في الصـحة؛ فقد دلت المشاهدات على أن المســرف في نحو المأكل والمشرب لا يتمتع بالصحة الـتي يتمتع بها المقتصـــــدون فيما يـــــأكلون ويشربون.

والإســـراف في الـــترف يقل معه النبـــــــوغ في العلم؛ ذلك أن النفس المحفوفة بالرفاهية من كل جـــــــانب يضـعف طموحها إلى اللــذات العقليــة؛ لأنها في لـذة قد تشـغلها أن تطلب لـذة كلــــذة العلـــوم طلبـــاً يبلغ بها مرتبة العبقرية.

ومن الجلي أن مرتبة العبقرية لا تُــدْرك إلا باحتمــال مصــاعب، واقتحــام أخطـار، والمسـرفُ في الـترف ضـعيف

العزيمة لا يثبت أمام المكاره والشدائد.

هــذه بعض مضــار الإســراف؛ فحق الأمة الــتي تريد النهــوض من كبوتها أن تقلع عن الإســراف في الرفاهيــة، وتضع مكــان الإســراف بــذلاً في وجــوه الــبر والإصـلاح؛ فمما تشـكو منه الأمة إطلاق الأيــدي بإنفــاق المــال في غــير جــدوى، وتــدبير المــال على غــير حكمة وحسن تقدير.

قــال العلامة الشــيخ محمد البشــير الإبــراهيمي × : =إن أمة تنفق الملايين في الشهر على القهوة والدخان، وتنفق مثلها على المحرمات، وتنفق مثلها على البــدع الضــارة، وتنفق أمثــال ذلك كله على الكماليــات الــتي تنقص الحيــاة ولا تزيد فيهـــا، ثم تـــدَّعي الفقر إذا دعاها داعي العلم لما يحييهــا _ لأمة كاذبة على الله، سفيهة في تصرفاتها+.

وقــال ×: =المــال الــذي تنفقه في المحرمـات يسـوقك إلى النـار، والمـال

الــذي تبــدده في الشــهوات يجلب لك العــار، والمــال الــذي تــدخره للورثة الجاهلين تهديه إلى الأشرار، وتبــوء أنت بالتبار والخسار.

أما المـــال الـــذي تحـــيي به العلم، وتميت به الجهل_ فهو الـذي يتوجك في الـــدنيا بتـــاج الفخـــار، وينزلك عند الله منزلة الأبرار+.

ولا يعـني التحـذير من الإسـراف في الترف أن يكون الناس على سنة واحدة من الإعــــراض عن الزينة والملاذِّ؛ فقد قـــــــــــــــــــــــــال _تعالى_ :[قُلْ مَنْ حَـرَّمَ زِينَـةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْــرَجَ لِعِبَــادِهِ وَالطَّيِّبَــاتِ مِنْ الــرِّزْقِ] الأعراف: 32.

وإنما المقصـود من ذلك الـدعوةُ إلى أخذ النفـــوس بالاقتصـــاد، وحمايتها من الإفراط في الزينة واللذيذ من العيش.

ولهـذا سـلكت هداية القـرآن الكـريم بالناس هذا الطريق القـويم، وهو طريق

الاقتصاد؛ فبعد أن أمر في آيات كثيرة بالإنفاق في وجوه الخير نهى عن الإسراف نهياً بالغاً، فقال _ تعالى_: [وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً] الإسراء: 29.

وألحق المبذرين بقبيل الشياطين فقال_ تعالى ـ[إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ]الإسراء: 27.

وعدهم في زمرة من يستحقون بغضه فقال_عز وجل_: [وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ] الأعراف: 31.

وأثنى على عباده المؤمنين بفضيلة الاقتصاد فقال: [وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً] الفرقان: 67.

وإذا كان الإسراف يوقع الأفراد والجماعات في مضارّ كثيرة كان واجباً على أولياء الأمور ودعاة الإصلاح أن

يتعـاونوا على الجهـاد في هـذا السـبيل؛ حــتى يبتعد النــاس عن الإســراف في مــــآكلهم، ومشــــاربهم، وملابســــهم، ومراكبهم، ومساكنهم، وأمتعة بيوتهم.

وحين يُحــذَّر من عــواقب الإســراف، ويُدعى إلى الاقتصاد _ يبين أنه لا فضـيلة في الاقتصاد إلا بعد أن يؤدي الرجل حق المـال من نحو النفقـات الواجبـات عليه لأقاربــه، والزكــوات المفروضة لأهلهــا، وبعد أن يبسط يـــده بالإعانة على بعض المصـــالح العامة كإنشـــاء مســـاجد، أو مدارس، أو مستشـفيات، أو ملاجىء، أو إعـداد وسـائل الاحتفـاظ بسـيادة الأمة والدفاع عن حقوقها.

2_ التوبة من التبعية الثقافية والفكرية: فمما يؤسف عليـه، وينـدى له جـبين الحق ما يُـرى من حـال كثـير من مثقفينا ومفكرينــا؛ فلا تــراهم يرفعــون بالإسلام رأساً، ولا يَهُزُّون لنصرته قلمــاً، ولا يحفلون إلا بزبالة أفكـار الغـرب، ولا

يثقون إلا بما يصدر من مشكاته.

إن كثيراً من هؤلاء الذين تخرجوا في المؤسسات الحضارية الغربية، وعاشـــوا في المجتمعــات الإســلامية_ يجهلـــون الإسلام جهلاً كاملاً.

ولا يعني ذلك الجهل أنهم لم يسمعوا بالإســــلام، أو أنهم لم يحفظـــــوا في صـــغرهم شـــيئاً من الآيـــات الكريمة والأحاديث الشريفة، أو أنهم لم يسجدوا لله يوماً من الأيام سجدة، أو لم يعرفوا أخبــار رســول الله"وصــحابته الكــرام _رضوان الله عليهم ـ.

لا، ليس الأمر كـذلك، وإنما المقصـود أن هــؤلاء يجهلــون نظــرة الإســلام إلى الكون، والحياة، والإنسان.

ويجهلـون حقـائق الإسـلام، وشـرائعه الحكيمة، ومقاصده النبيلة.

ويجهلون قيم الإسلام،ومُثُلَه،وأخلاقه، وخصــــائص حضــــارته، وتطوراتهــــا، ومراحلها.

ويجهلون أسباب تقدم المسلمين في التاريخ، وأسباب تأخرهم.

ويجهلـــون القـــوى الـــتي حـــاربتهم، والمؤامرات الـتي نسـجت عـبر التـاريخ للقضاء عليهم.

فهـــؤلاء الـــذين نســـميهم مثقفين ومفكـــرين عنـــدما واجهو الغـــرب، وحضارته، وفنه، وأدبـه _ لم يواجهـوه إلا بعقـول خـواء، وأفئـدة هـواء، ونفـوس مجـــردة من معـــاني الأصـــالة والعـــزة والأنفة؛ فلم يواجهوا الحضارة الحاضـرة مواجهة مدركة، فاحصة، مقوّمة.

وإنما واجهوها مواجهة ســـــــطحية تنطلق من مـــواطن الجهـــل، والذلـــة، والشعور بالهزيمة، فانبهروا بكل ما فيها دونما تمييز بين الحق والباطـل، والضـار والنـافع؛ فنكسـوا رؤوسـهم حِطَّةً أمـام الغرب.

ولهـذا تـراهم يَهُشُّـون ويطربـون إذا ذكر اسم فرويـد، أو نيتشــه، أو ت. إس

إليوت، أو ماركيز، أو غيرهم من مفكري الغـــــرب على اختلاف توجهـــــاتهم ومدارسهم الفكرية.

وإذا ذكر الله ورســــوله اشــــمأزت قلـــوبهم، واســـتولى عليهم الشـــعور بالهزيمة والذلة.

ومن هنا فـــإن مثقفينـــا _ في فـــروع الحياة كلها إلا من رحم ربك _ قد نقشـوا ما عند الغربـيين، وظنـوا أنه لا ثقافة إلا ثقـــافتهم، ولا أدب إلا أدبهم، ولا واقع إلا واقعهم؛ فهم جهلـوا الإسـلام وحضـارته، وعرفوا كل شيء عن الغرب.

وأكثر هؤلاء لا يتـبرؤون من الإسـلام، بل يصرحون بانتمائهم للأمة الإسلامية.

ولكنهم يفهمـون الإسـلام من إطــار المفهوم الغربي للدين.

والمفهوم الغـربي للـدين يتلخص في أن الدين عبـارة عن رابطة فردية خاصة بين الإنســان وربـــه؛ فالإنســان يــؤمن بمجموعة من القيم والأخلاق الـــــتي

يســـــتقيها من إيمانه باللـــــه، تصـــــوغ شخصـيته، وتجعل منه إنسـاناً اجتماعيـاً يستقيم سلوكه العام في إطـار الإيمـان الديني.

أما الحيـــاة بشـــمولها فإنهـــا_ في نظـــــرهم_ لا بد أن تخضع لحركة العقل المتغير عبر الزمان والمكان.

يقــول الــدكتور محسن عبدالحميــد_ أحد علمـــــاء العــــــراق_ : =من خلال عشــرات المواقف الأليمة جــداً الــتي مرت في حياتي التدريسية، والتي أثبتت لي بشكل قطعي هـذا الجهل العـام بين كثير من مثقفينا للإسلام أروي الحوادث الآتية:

* في محاضـــــرة عامة لاقتصـــــادي مسـلم اسـتعرض المـذاهب الاقتصـادية كلها منذ أقـــــدم العصـــــور إلى العصر الحديث في مختلف الملل والنحـل، ولم يتطـــرق إلى الإســـلام أو حضـــارته في مجال الاقتصاد منهجاً وعلماً.

فلما سُئل عقب انتهاء المحاضرة عن سـبب ذلك قـال بـالحرف الواحـد: أنا متأسف؛ لأنـني لا أعـرف عن وجهة نظر الإسلام في هذا الموضوع شيئاً.

ولما أهـدي له فيما بعد كتـاب حـول أحكـام الاحتكـار في الفقه الإسـلامي تعجب كثـيراً، وذكر أنه لم يكن يظن أن الفقهاء بحثوا مثل هذه الموضوعات.

* وحضـرت مـرة مناقشة رسـالة علمية في الفقه الجنـائي الإسـلامي مقارناً بالفقه الجنائي الغربي_ استغرب منـاقش قـانوني في اللجنة أن يكـون فقهـاء المسـلمين قد ناقشـوا بعمق نظرية قانونية كـان هو يعتقد أنها نظرية غربية صِرْفة.

* وكنا نتنـاقش يومـاً في غرفة الأساتذة حول وضع المرأة في الإسلام؛ فانبرى أحد المختصين في علم الاجتماع فقـال: إن الإسـلام ظلم المـرأة عنـدما جعل الرجل قوَّاماً عليها.

فلما سـألناه: ما المعـنى اللغـوي للقوامة في الآية الكريمة حـتى نحـدد موقفنا منه_ تلعثم ولم يعرف معناها.

فقال له أحـدنا: كيف تصـدر يا أسـتاذ هذا الحكم الظالم على الإسـلام وأنت لا تعرف معنى القوامة؟+

ثم إن نظـرة كثـير من أولئك تجـاه المسـلمين وقضـاياهم هي هي نظـرة الغـرب؛ فـالغرب يـرى أن الإسـلام دين قسـوة وهمجيـة، وأن أهله قسـاة عتـاة أجلاف غلاظ الأكباد.

وينطلي هـذا الهـراء على كثـير من أولئك المثقفين، فيسـايرون أعـداءهم، ويسـيرون في ريحهم، وما علمـوا أن الإسـلام دين العـدل والرحمـة، وأن أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس.

وما الحسـام الـذي يـأمر الإسـلام بانتضـائه للجهـاد في سـبيل الله إلا كمبضع طـبيب ناصح يشـرط به جسم العليل؛ لينزف دمه الفاسد؛ حرصـاً على

سلامته.
وما الجهـاد _دفعـاً كـان أو طلبـاً_ إلا تخليص للعبـــاد من عبـــادة العبـــاد إلى عبادة رب العباد.
وما هو إلا وســـيلة للحيـــاة الكريمة العزيزة الطيبة.
وأمة الإسـلام خـير أمة جاهـدت في سبيل الله فانتصـرت، وغلبت فـرحمت، وحكمت فعـــدلت، وساست فـــأطلقت الحرية من عقالهـــا، وفجـــرت ينـــابيع المعارف بعد نضوبها.
واسـأل التـاريخ؛ فإنها قد اسـتودعته من مآثرها الغرِّ ما بَصُر بضـوئه الأعمى، وازدهر في الأرض ازدهار الكـواكب في كبد السماء.
فمـاذا فعل المسـلمون لما انتصـروا على خصومهم؟ مـاذا قـال النـبي_ عليه الصلاة والسلام_ لما انتصر على قـريش وفتح مكـة؟ ألم يصـفح عنهم؟ وينس ما فعلوه به؟

ومــاذا فعل المســلمون لما انتصــروا على كسرى وقيصر؟ هل خـانوا العهـود، وهل انتهكـــوا الأعـــراض؟ وهل قتلـــوا الشيوخ والأطفال والنساء؟

ومــاذا فعل صــلاح الــدين لما انتصر على الصــليبين؟ ألم ينعم على قائــدهم بالعفو؟ ألم يعالجه، ويطلق سراحه؟

فهـــذه المواقف وأمثالها كثـــيرة في تاريخ المسـلمين، مما كـان لها أبلغ الأثر في محبة الناس للإسلام، والــدخول فيه عن قناعة ويقين.

أفغـير المسـلمين يقـوم بمثل هـذا؟ آلغرب يقدم لنا مثل هذه النماذج؟

الجـواب ما تـراه وتسـمعه؛ فمن أين خـــرج هتلـــر، وموســـوليني، وليـــنين، وســـتالين، ومجرمو الصـــرب؟ أليست أوربا هي التي أخرجت هؤلاء الطـواغيت الشـــياطين الـــذين قتلـــوا الملايين من البشـــر، والـــذين لاقت البشـــرية منهم الــويلات إثر الــويلات؟ ألا يعد أولئك هم

طلائع حضارة أوربـا؟ فمن الهمج العتـاة القساة الأجلاف إذاً؟

ثم من الـــذي صـــنع القنابل النووية والجرثومية، وأسـلحة الـدمار الشـامل؟ ومن الـــذين لوثـــوا الهـــواء بـــالعوادم، والأنهـار بالمبيـدات؟ ومن الـذي يـدعم اليهود وهم في قمة الإرهـاب والتسـلط والظلم؟

ومــاذا صــنعت أو تصــنعه أمريكا من التسلط، والصلف، وهي التي تدعي أنها حاملة لواء السلام؟

فمــاذا صــنعت بأطفــال أفغانســتان وشــعبه البــائس، ومــاذا ســتفعله في العراق وغيره.

أما آن لكثــير من مثقفينا أن يصــحوا من رقــدتهم؟ وألا ينظــروا إلى الغــرب بعين عـــوراء متغـــافلين عن ظلمـــه، وإفلاسه الروحي؟

هذه هي حال كثـير من مثقفينـا، ومع ذلك تجـدهم يتصـدرون وسـائل الإعلام،

ويتطرقون لقضايا الأمة.
ولو صُرف النظر عن ناحيتهم، وتـرك حبلُهم على غـاربهم_ لهبطـوا بكثـير من شبابنا في خسـار يهـتز له قلب عـدوهم شماتةً وفرحاً.
والنفوس الـتي تـتزحزح عن الإيمـان قيد شـــعرة تبتعد عن مـــراقي الفلاح سبعين خريفاً.
فلا بد_ إذاً_ من أن نكون على مرقبة من دعـايتهم، وننفق سـاعات في التنبيه على أغلاطهم؛ لعلهم ينصـــــاعون إلى رشـدهم، أو لعل الأمة تحـذر عاقبة هـذا الذي يبدو على أفواههم.
فحقيق على هـــؤلاء أن يؤوبـــوا إلى رشـــدهم، وأن يقـــدموا لأمتهم ما يرفع عنها الذلة والتبعية، وأن يبحثوا في سبل رقيها وفلاحها.
وإن من أعظم ما يعينهم على ذلك أن يدرسوا الإسـلام دراسة واعية متأنية من مصادره الأصـيلة، وأن يكـون لـديهم

من الشـجاعة الأدبية والأمانة العلميـة _ ما يبعثهم إلى الرجـــــــوع إلى الحق والاعتزاز به.

أما السـير في ركـاب الغـرب، والأخذ بكل ما يصـــــــدر منه دونما تمحيص _ فــذلك محض الهــوان، وعنــوان التخلي عن العزة والكرامة؛ فالأمة العزيزة هي التي تعرف مقدار ما تعطي، ومقـدار ما تأخذ، ونوع ما تعطي ونوع ماتأخذ، وهي التي تعد نفسها بكل ما أوتيت من قـوة؛ حتى تحمي رأيها فيما تأخذ وما تدع، وما تعطي وما تمنع.

ورحم الله الشيخ محمد الخضر حسين إذ يقول:

كنا بـــــدورَ هداية ما من سَـــــــــنَىً ... إلا ومن أنوارها يســــــــــتوقد

كنا بحـورَ معـارف ما من حُلىً ... إلا ومن أغوارها يتصـــــــــــــيد

كنا جلاءًا للصدور من القـــــــــــذى ... ولواؤنا بيد السعادة يعقد

ما صـــافحت راحاتنا دوحـــــــــاً ذوى ... إلا وأينع منه غصن أغيد

ومن احتمى بطرافنا ... آوى إلى الحـــــرم

السامي الذُّرا الي لا يضهد
لا يمْتري أهْلُ التمدن أنهم لو لم يسيروا إثرنا لم يصعدوا
فَسلوا متى شئتم سَراتَهُمُ فما من أمة إلا لنا فيها يد
لا فخر في الدنيا بغير مجادة تعنو لها الأمم العظام وتسجد
لكننا لم نرعَ فيها حُرْمةً بذمامها من الرقاب تقلد
أخذت مطيَّات الهوى تحدو بنا في كل لاغية كساعة نولد
حتى انزوى من ظلها الممدود ما فيه مقام يستطاب ومقعد
أبناءَ هذا العصر هل من نهضة تشفي غليلا حره يتصعد

ورحم الله الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي إذ يقول:

فأين الذي رفعته الرماح وأين الذي شيَّدته القُضُبْ
وأين شواهقُ عزٍّ لنا تكاد تمس ذراها السحب
لقد أشرق العلم من شرقنا وما زال يَضْؤُلُ حتى غرب
وكنا صعدنا مراقي

المعـالي ... فأصبح صـاعدنا في صـبب

وكم كـان منا ذوو همة ... سمت بهم لمعـالي الـرتب

وكم من هِزَبْـرٍ تهز البرايا ... بـوادره إن ونى أو وثب

وأقْسِمُ لـولا اغـترار العقـول ... لما كف أربابها عن أرب

ولـولا الـذي دَبَّ ما بينهم ... لما استصـعبو في العلا ما صعب

3_ التوبة الإعلاميـة: فـالإعلام في كثير من بلاد المسـلمين يـروِّج للرذيلـة، ويـزري بالعفة والفضـيلة، فـتراه يصب في قـالب العشق والصـبابة، والـترف والهـزل، ويسـعى لتضـليل الأمة عن رسالتها الخالدة.

فجدير بإعلام المسلمين أن تكـون له شخصـيته المتمـيزة، وأن يكـون داعية إلى كل خير وفلاح.

وواجب على كل إعلامي مسـلم أن يتضـلع بمسـؤوليته، وأن يـدرك حجم

الأمانة الملقـاة على عاتقـه، فهو يرسل الكلمة فتسـير بها الركبـان؛ فله غنمهـا، وعليه غرمها.

4_ التوبة من التفـــرق والتـــدابر: فالنـاظر في أحـوال الأمة يـرى عجبـاً؛ فأعـداؤها يحيطـون بها من كل جـانب، ويكيدون لها ويتربصون بها الدوائر.

ومع ذلك تـــرى الفرقـــة، والتـــدابر، والتنافر؛ فـالعقوق، والقطيعـة، وإسـاءة الظن، وقلة المراعاة لحقوق الأخوة في الله_ تشيع في أوساط المسلمين.

ولا ريب أن ذلك مما يســـخط الله _عز وجل_ ومما يفرح الأعـداء، ويـذهب الريح، ويورث الفشل.

فـــواجب على الأمة أن تجمع كلمتها على الحـــق، وأن ينـــبري أهل العلم والفضل والإصـلاح لـرأب الصـدع، ونبذ الفرقة.

قــال ربنا _تبــارك وتعــالى_: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلا

تَمُـــــوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْــــلِمُونَ[102] وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعـاً وَلا تَفَرَّقُـوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَـأَلَّفَ بَيْنَ قُلُـوبِكُمْ فَأَصْـبَحْتُمْ بِنِعْمَتِـهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَـفَا حُفْـرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَـذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِـهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[103]آل عمران.

5_ التوبة من التـــبرج: تلك الســـنة الإبليســـية الجاهلية الـــتي فتحت على المسلمين باب شر مستطير.

ففي أكــثر بلــدان المســلمين تخلت النســاء عن الحجـاب، وأخــذن بـالتبرج، والتهتك، والتبذل، والسفور على تفـاوت فيما بين البلدان.

وهذا الصنيع نذير شر وشؤم، ومؤذن لعنة وعــذاب؛ ذلك أن التــبرج مــوجب لفساد الأخلاق، وضـيعة الآداب، وشـيوع الجــرائم والفـواحش، وانعـدام الغـيرة، واضمحلال الحياء.

وبســـببه تتحطم الروابط الأســـرية،

وتنعدم الثقة بين أفرادها.
وهــذا التــبرج لم يكن معروفــاً عند المســـــلمين، وإنما هو ســــنة جاهلية انقطعت بالإسلام.
قـــال_ تعـــالى_ مخاطبـــاً نســـاء المســـلمين[وَلا تَبَــرَّجْنَ تَبَــرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى] الأحزاب: 33.
وفي العصـور المتـأخرة دخل التـبرج على المســلمين بســبب الإعــراض عن هداية الدين، وبسـبب الحملات الضـارية على المــرأة المســلمة؛ كي تتخلى عن وقارها وحيائها وحشمتها ودينها.
كما دخل على المســلمين من بــاب التقليد الأعمى للغـرب ومحاولة اللحـاق بركابه؛ لئلا يقال: متخلفون رجعيون!
وإذا أنكر منكر على أولئك الـــــذين يــدعون إلى التــبرج والســفور وصــموة بــالتخلف والرجعيــة؛ فهل تقليد الغـرب في مســتهجن عاداته إلا التخلف بعينــه؟ أو ليس هــذا التقليد مما يزيد الشـعوب

المقلدة وهناً على وهن؟ !
وإذا أردت الـــدليل على أن التـــبرج تخلف عن ركب الحضـــارة فـــانظر إلى انحطـاط خصـائص الجنس البشـري في الهمج من العـــراة الـــذين لا يزالـــون يعيشـــون في المتاهــات والأدغــال على حـــال تقـــرب من البهيميـــة؛ فـــإنهم لا يأخذون طريقهم في مدارج الحضارة إلا بعد أن يكتسوا.
ويســـتطيع المـــراقب لحـــالهم في تطـــورهم أن يلاحظ أنهم كلما تقـــدموا في الحضـــارة زادت نســـبة المســـاحة الكاسية من أجسادهم.
كما يلاحظ أن الحضـــارة الغربية في انتكاسها تعود في هذا الطريق القهقرى درجة بعد درجة حـــتى ينتهي الأمر إلى العــري الكامل في مــدن العــراة الــتي أخذت في الانتشار بعد الحــرب العالمية الأولى، ثم استفحل داؤها في الســنوات الأخيرة.

ونحن إذا احتجنا إلى الاســـتفادة من خــبرة الغــرب، وتفوقه في الصــناعات الآلية الــتي كــانت ســبباً في مجـــده وســـيادته_ فمن المؤكد أننا لســـنا في حاجة إلى اســتيراد قواعد في الســلوك والتربية والأخلاق الــتي تــدل الأمــارات والبــوادر على أنها ســتؤدي إلى تــدمير حضارته، والقضاء عليها قضاءًا تامــاً في القريب العاجل.

إننا في حاجة إلى مـــواد البنـــاء؛ لأن لـــدينا من عوامل الضــعف والهـــدم ما يكفي، ومن مصــائبنا _نحن الشــرقيين_ أننا لا نأخذ المصـــائب كما هي، بل نزيد عليها ضعفنا فإذا هي رذائل مضاعفة.

ومع ذلك تجد من أبنــاء جلــدتنا من لا يصــيخون الســمع إلى هداية الــدين، بل هم يلحدون في آيات اللــه، فيميلــون بها عن وجهها حينـــاً، ويجـــادلون فيها أشد المجادلة حيناً آخر.

في الــوقت الـــذي يَخْضــعون لهـــذه

المزاعم الداعرة، ويرونها فـوق النقـاش والمراء.

هـؤلاء قـوم لا تقـوم عنـدهم الحجة بـالقرآن والسـنة، ولكنها تقـوم بهـذه الظنون والأوهام؛ فإذا عارضتهم بالثابت من الشـرع_ وهم يزعمـون أنهم مسـلمون_ لـووا رؤوسـهم، وقـالوا: نحـدثك في العلم فتحـدثنا في الـدين؟ وكـأن هـذه الأوهـام عنـدهم أثبت من الشرع المطهر.

أتـرى فرقـاً بين هـؤلاء وبين أمم قد خلت من قبلهم من الضـالين كـانوا يقولون إذا ذُكِّروا بآيات الله: [قَدْ سَمِعْنَا لَـوْ نَشَـاءُ لَقُلْنَا مِثْـلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ] الأنفال: 31؛[لِيَحْمِلُـوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَـةً يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِـلُّونَهُمْ بِغَيْـرِ عِلْمٍ أَلا سَـاءَ مَا يَزِرُونَ] النحل:25.

وبالجملة فإن الحقيقة الماثلة للعيـان تقول: بـأن التـبرج أقـرب الوسـائل إلى

تلويث الأعـراض، ونكد العيش، وأنه إلى ابتـذال المـرأة أقـرب منه إلى كرامتهـا، وإلى عنائها أقرب منه إلى راحة بالها.

قـال الأديب الكبـير مصـطفى صـادق الرافعي × :=وما هو الحجـاب إلا حفظ روحانية المـرأة للمـرأة، وإغلاء سـعرها في الاجتمـــاع، وصـــونها من التبـــذل الممقوت+.

وقال:=وأسـاس الفضـيلة في الأنوثة الحياء؛ فيجب أن تعلم الفتـاة أن الأنـثى مـــتى خـــرجت من حيائها وتهجَّمت؛ أي تـوقَّحت، أي تبـذَّلت_ اسـتوى عنـدها أن تـذهب يمينـاً، أو تـذهب شـمالاً، وتهيـأت لكل منهما ولأيهما اتفق.

وصـــاحبات اليمين في كنف الـــزوج، وظل الأسرة، وشرف الحياة، وصـاحبات الشمال ما صاحبات الشمال... ؟+.

وقـال: =فكل ما تـراه من أسـاليب التجميل والزينة على وجـــوه الفتيـــات وأجســامهن في الطـرق_ فلا تَعُدَّنَّه من

فرط الجمال، بل من قلة الحياء+.

وإذا كان الأمر كـذلك فإنه يجب على الأمَّة المسـلمة أن تتـوب من التـبرج والسفور، وأن تحاربه بكل ما أوتيت من قـوة.، وأن تـدعو في الـوقت نفسه إلى لـزوم الحجـاب والحشـمة للمـرأة المسلمة؛ ففي الحجاب العفة، والسـتر، والطهر، والسـلامة من الفتنـة، والنجـاة من الوعيد وغـير ذلك من فضـائل الحجاب.

كما يجب على المـرأة المسـلمة أن تحافظ على حجابهـا، وأن تعـتز بـه، وألا تلتفت إلى دعـاوى المبطلين الـذين يفسـدون في الأرض ولا يصـلحون، وأن يكـون حجابه مسـتوعبا جميع بـدنها بما في ذلك الوجه والكفـان، وألا يكـون الحجـاب زينة في نفسـه، وأن يكـون صـفيقاً لا يشـف، وأن يكـون فضفاضـاً غير ضيق، وألا يكـون مُبخَّراً مطيبـاً، وألا يشـبه لبـاس الرجـل، أو الكـافرات، وألا

يكون لباس شهرة.

فإذا كانت كـذلك فـأحْرِ بها أن تسـعد في نفسها، وأن تَسعدَ الأمَةُ بها.

6_ التوبة من التقصــير في الـــدعوة إلى الله والأمر بـــالمعروف والنهي عن المنكر: فأمة الإسـلام هي الأمة القوامة على الأمم، وهي الشــاهدة على الأولين والآخرين.

والبشـرية جمعـاء بـأمسّ الحاجة إلى هداية الإســلام، ومع ذلك تجد التقصــير في جانب الدعوة إلى الله.

والتبعة في ذلك تقع على أهل العلم بخاصة؛ فما بال كثير منهم يعـرف منـاهج الصلاح، ويبصر طائفة من قومه يتهافتون على عمايـــة، أو يهيمـــون في جهالة ولا تنهض به الهمة؛ ليعمل على إفــاقتهم من سكرتهم، وإراءتهم معالمَ فوزهم؟.

وما بــال الخلاف يــدب في صــفوف كثــير من الــدعاة، فيفشــلهم، ويــذهب ريحهم؟

وما بـــال كثـــير منهم يخطىء ســـبيل الحكمـــة، ويـــؤثر مصـــلحته_ الخاصة على مصلحة الأمة؟

وما بـال كثـير منهم يـنزوي وينطـوي على نفسه غـير مكـترث بمصـير الأمـة، وغير مبال بوعيد الله لمن كتم العلم؟

وما بـال الشـرك يضـرب بجرانه في كثـــير من بلاد المســلمين على مـــرأى ومســمع من أهل العلم دون أن يُغيَّر أو ينكر؟

وما بـــال القبـــور تشـــيد، وتعظم، ويطاف عليها، وتهدى لها النذور، ويدعى أصحابها من دون الله _عز وجل_؟

إن السكوت عن الدعوة جرم عظيم، وذنب يجب التوبة منـــــه؛ ذلك أنه إذا انـــزوى العـــارفون بوجـــوه الإصـــلاح رفع البغي لـــواءه، وبقي إخـــوان الفســـاد يترددون على أماكن المنكرات.

والبغيُ يضـــرب على الأمة الذلـــةَ والمســكنةَ، والانهمــاكُ في المنكــرات

يميت خصـــــــــــال الرجولة من نحو الشـجاعة، وشـدة البـأس، والبـذل في سبيل الخير.

وإذا تفشى وبـــاء الفســـاد تـــداعت الأخلاق الفاضـــلة إلى ســـقوط، ونضب مـاء الحيـاء من الوجـوه، ووهنت رابطة الاتحــاد في القلــوب، وتضــاءلت الهمم عن معـــالي الأمـــور، وقلَّت الرغبة في الآداب والعلوم.

وما عاقبة الأمة المصـــــابة بالـــــذل والإحجـــــام، والجهل والتفـــــرق، وقلة الإنفاق في سبيل البر إلا الدمار.

ولا يحسب الــــذين ينقطعــــون عن إرشـاد الضـالين، ووعظ المسـرفين أن إقبـالهم على شـأنهم، واقتصـارَهم في العمل الصالح على أنفسهم يجعلهم في منجـاة من سـوء المنقلب الـذي ينقلب إليه الفاسـقون؛ فالـذي جـرت به سـنة الله في الأمم أن وباء الظلم والفسـوق إذا ضـــرب في أرض، وظهر في أكـــثر

نواحيها_ لا تنزل عقوبته بديار الظـالمين أو الفاسقين خاصــة، بل تتعـداها إلى ما حولهـــا، وتـــرمي بشـــرر يلفح وجـــوه جيرانهم الذين تخلوا عن نصـيحتهم، ولم يأخذوا على أيديهم.

قال_ تعالى_ :[وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِـيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً] الأنفال: 25.

وجــاء في صــحيح مســلم عن زينب بنت جحش_ رضي الله عنهـــا_ قـــالت: قلت: يا رســـــــول الله أنهلك وفينا الصالحون؟

قال: =نعم؛ إذا كثر الخبث+.

ومن البلية في سكوت أهل العلم أن العامة يتخذونه حجة على إباحة الأشــياء أو استحســـانها؛ فـــإذا نهيتهم عن بدعة سيئة، وسـقت إليهم الـدليل على قبحها ومخالفتها لما شرع اللـه_ كـان جـوابهم أنهم فعلوها بمـرأى أو مسـمع من فلان من أهل العلم ولم يعـــــــترض فعلهم بإنكار!.

ومن أثر التهاون بالإرشاد أن يتمــادى المفســدون في لهــوهم، ولا يقفــوا في اتبـــاع شـــهواتهم عند غايـــة؛ فتقع أعين النـاس على هـذه المنـاكر كثـيراً، فتألفها قلــوبهم، حــتى لا يكــادوا يشــعرون بقبح منظرها، أو يتفكرون في سوء عاقبتها.

ومن أثر هــــذا أن يقبل عليهم الحق بنـوره السـاطع ووجهه الجميـل، فتجفل منه طبــاعهم، وتجفــوه أذواقهم لأول ما يُشْرف عليها.

وإذا كان الأمر كذلك كان لزامــاً على الأمة أفــراداً وجماعــات أن تتــوب من التقصــير في الــدعوة إلى اللــه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يقوم كل فرد بحسـبه بما أوجب الله عليه من نصرة دين الله.

هذا بلسانه، وهذا بقلمه، وهذا بمالــه، وهذا بجاهه، ولكل وجهة هو موليها، وقد علم كل أناس مشربهم.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن ارتكــــاب

الذنوب لا يسـوغ تـرك الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر، والـدعوة إلى اللـه: فكثيرٌ من الناس إذا قصَّـر في الطاعـة، أو وقع في المعصـــــية_ تـــــرك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى اللــه؛ بحجة أنه مُقَصِّــر، وأنه يفعل خلاف ما يأمر به، وأنه يخشى أن يـدخل في الوعيد لمن دعا وتـرك ما يـدعو إليه كما في قوله_ تعالى_: [أَتَـأْمُرُونَ النَّاسَ بِـالْبِرِّ وَتَنسَـوْنَ أَنفُسَـكُمْ] البقـرة: 44، وقوله: [كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُـوا مَا لا تَفْعَلُونَ] الصف: 3.

وهـــذا خطأ يجب على المســـلم أن يحــذره ويتجنبــه؛ فــترك أحد الواجــبين ليس مسوغاً لترك الآخر، والـذم الـوارد في

النصوص إنما هو لـترك المعـروف، لا للأمر بالمعروف.

قال_ تعالى_ : [لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَـى

ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ[78]كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[79] المائدة .

فانظر كيف نعى الله عليهم ترك التناهي مع أنهم مشتركون في المنكر؛ فلا يجوز للمسلم أن يجمع بين إساءتين، وإلا لتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال ابن حزم ×: =ولو لم يَنْهَ عن الشر إلا من ليس فيه شيء منه، ولا أمر بالمعروف إلا من استوعبه_ لما نهى أحد عن شر، ولا أمر بخير بعد النبي "+.

وقال النووي ×:=قال العلماء: ولا يشترط في الآمر والناهي أن يكون كامل الحال، ممتثلاً ما يأمر به، مجتنباً ما ينهى عنه، بل عليه الأمرُ وإن كان مُخِلاً بما يأمر به، والنهيُ وإن كان متلبساً بما ينهى عنه؛ فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه، وينهاها، ويأمر

غـيره، وينهـاه؛ فـإذا أخل بأحـدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر؟+

قــال ســعيد بن جبــير × :=لو كــان المـرء لا يـأمر بـالمعروف، ولا ينهى عن المنكر حـتى لا يكـون فيه شـيء ما أمر أحد بمعروف، ولا نهى عن منكر+.

قال الإمام مالك × معلقاً على قــول سعيد بن جبـير: = وصـدق سـعيد؛ ومن ذا الذي ليس فيه شيء+.

وقـــــــال الحسن لمُطَـــــــرّف بن عبدالله:=عظْ أصحابك.

فقـــال: إني أخـــاف أن أقـــول ما لا أفعل!

قـــال: يرحمك اللــــه، وأيُّنا يفعل ما يقــول؟ يــود الشــيطان أنه قد ظفر منا بهـذا؛ فلم يـأمر أحد بمعــروف، ولم ينه أحد عن منكر+.

وقال الطبري ×:=وأما من قــال: لا يــــأمر بــــالمعروف إلا من ليست فيه وصــمة، فــإن أراد أنه الأوْلى فجيِّد، وإلا

فيسـتلزم سد بـاب الأمر بـالمعروف إذا لم يكن هناك غيره +.

وعلى هذا فعلى من وقع في معصية، أو قصَّــــــر في طاعة ألا يــــــدع الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله حسب قدرته واســــــتطاعته؛ فلربما اهتدى على يده عـاص، أو أسـلم كافر، أو تسـبب في ذلـك؛ فكـان له من الأجر مثل ما لهم من غـــــير أن ينقص ذلك من أجورهم.

ولا يفهم مما ســبق أنه لا بــأس في تــــرك المعـــروف وفعل المنكر للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

بل يجب عليه فعل المعـروف، وتـرك المنكــر؛ لأنه يعــرض نفسه لغضب الله عند التساهل في هذا.

بل ينبغي له أن يكون أولَ ممتثل لما يأمر به، وأولَ مُنْتَهٍ عما ينهى عنه.

وغاية ما في الأمر أن فعل المعـروف، وتـرك المنكر ليس شـرطاً

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر؛ فلا يقال لمن أمر بـالمعروف، ولم يفعله أو نهى عن المنكـــر، وفعلـــه: لا تـــأمر بـالمعروف، ولا تنـهَ عن المنكـر، وإنما يقال له: داوم على أمـرك ونهيـك، واتق الله فيما تأتي وما تذر.

وإذا كان هذا في شـأن من هو عـاص أو مقصــر_ فكيف إذا كـان الشـخص ذا علم، وصـــلاح وهو مقصر بـــالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

فعليه أن يتـــوب من ذلـــك، وأن يسـتدرك ما فـات؛ لأن الله سـائله عن علمه ماذا عمل به [لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً] هود: 7.

نظرة في حال المجتمعات البعيدة عن الله

وبعد أن تـــــــبين لنا حاجة الأمة إلى التوبــة، وإلى التمــيز، والحــذر من تقليد الأعــــــداء الكفــــــار في مســــــتهجن العادات_هذه نظرة في حال المجتمعات البعيــدة عن اللــه؛ فهنــاك من يــرى أن الســعادة لا تتحقق إلا بإْتبــاع النفــوس هواهــــــا، وإرســــــالها مع كافة رغائبها وشــهواتها؛ بحيث لا يبقى عليها حســيب ولا رقيب، ولا يقف في طريقها دين، أو عرف، أو نحو ذلك؛ فهـذا سر الســعادة، وتلك جنة الفردوس عند أولئك.

ولهذا ترى نفـراً غـير قليل من هـؤلاء يــــدعو إلى الإباحيـــة، وإلى فتح أبـــواب الحريــة؛ لتتخلص المجتمعــات من كبتها وعقدها، ولتنعم بالسعادة كما يزعمون!

فهل هــــذا الكلام صـــحيح؟ وهل تلك المجتمعات الكافرة تنعم بالسعادة حقاً؟

والجـواب ما تـراه وتسـمعه؛ فها هي

أمم الكفر قد فتحت أبـواب الحرية على مصـــــاريعها؛ فلم يَعُــــدْ يَرْدَعُها دين، أو يَزُمُّها ورعٌ، أو يحميها حيـــــاء؛ فمن كفر وإلحــــاد إلى مجــــون، وخلاعة وإباحية مطلقة، ومن خمور ومخـدرات إلى زنـاً، ولواط، وشـذوذ بكافة أنواعه مما يخطر بالبال، ومما لا يخطر؛ فكيف تعيش تلك الأمم؟ وهل وصلت للسعادة المنشودة؟

والجواب: لا؛ فما زادهم ذلك إلا شقاءًا وحسـرةً؛ فسـنة اللـه _ عز وجـل_ في الأمم هي ســنته في الأفـــراد؛ فمـــتى أعرضت عن دينه القــــويم أصــــابها ما أصابها بقدر بعدها وإعراضها.

ولهـذا تعيش تلك الأمم حيـاة شـقية تعيسة صـعبة معقـدة؛ حيث يشـيع فيها القلق، والاضطراب، والتفكـك، والقتـل، والســـرقة، والشـــذوذ، والاغتصــــاب، والمخـــدرات، وأمـــراض الجنس، وتفقد فيها الطمأنينة، والراحة، والمحبة، والبر، والصـلة، والتعـاطف، والتكافل إلى غـير

ذلك من المعاني الجميلة.
قــال_ تعــالى_ : [وَمَنْ أَعْـرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى] طه: 124.
كيف تسعد تلك الأمم وفي داخل كل إنســان منها أســئلة محــيرة؟ من خلق الحيــاة؟ وما بــدايتها؟ وما نهايتهــا؟ وما سر تلك الـروح الـتي لو خـرجت لأصـبح الإنسان جماداً؟
إن هــذه الأســئلة قد تهــدأ في بعض الأحيان؛ بسبب مشاغل الحياة، ولكنها لا تلبث أن تعود مرة أخرى.
وكيف لا تحــرم تلك الأمم الســعادة وهي تعيش بلا دين يــــزكي نفوســــها، ويضبط عواطفها، ويردعها عن التمــادي في باطلهــــا، ويسد جوعتها بالتوجه إلى فاطرها؟
إن الكنيسة بتعاليمها المحرفة لا تستطيع أن تجيب عن الأسـئلة الماضـية بدقة ووضــوح، ولا تملك منهجــاً يــزكي

النفــوس، ويقنع العقــول، وتســير عليه أمور الناس بانتظام.

ولقد زاد هــذا الأمر ضـــراوة بعد أن تراجعت الكنيسة أمام ضربات الإلحاد.

فما أغنت الحرية المزعومة والإباحية المطلقة عن تلك المجتمعــات فــتيلاً أو قطميراً، ولا جلبت لها الســعادة الحقــة، ولا الحياة الكريمة.

ولهذا يبحث الناس هناك عما يريحهم من هذا العناء والشــقاء؛ فمنهم من يلجأ إلى المخدرات والمهدئات التي تضاعف البلاء، وتزيد في الشقاء.

ومنهم من يـــروي غليله بالشـــذوذ الجنســي، حـتى يفقد إنســانيته وصـحته؛ ويكون عرضة للإصابة بـأمراض الشـذوذ المتنوعة كــــالزهري، والســــيلان، والهــربس، والإيــدز، وما يصــاحب هــذه الأمراض من ضيق وتكدر.

ومنهم من يـــروي غلته بالســـطو، والســـرقة؛ حــتى إن النــاس هنــاك لا

يكـــــادون يـــــأمنون على أمـــــوالهم، وممتلكــاتهم؛ بل لقد أصـبحت السـرقة تعتمد على الدراسة والتكنولوجيا الحديثــة؛ المجهــزة بأحــدث الوســائل والأســـــاليب، القائمة على أحـــــدث المبتكرات والتخطيط لكل عملية سطو.

ومنهم من يســــــلك طريق القتل؛ ليتشــفى من المجتمــع، ويطفىء نــار حقــده، فــتراه يتحين الفــرص، وينتهز الغِرَّة؛ ليهجم على ضحية يفقدها الحياة، ثم يبحث عن ضحية أخرى.

بل لقد أصـــبح القتل عند بعضـــهم متعة، ونوعاً من اللذة.

وكثيراً ما يكون القتل لأتفه الأسباب، حتى إن الواحد قد يقتل أقرب الأقــربين إليه.

ومنهم من يبلغ به الشــــــقاء والهم غايتـه؛ فلا يجد ما يسـعده، أو يريحه من همومه وغمومــه، ولا يــرى ما ينفس به كربته، أو يعينه على تحمل أعبـاء حياتـه؛

فيلجأ حينئذ إلى الانتحـــــــار؛ رغبة في التخلص من الحياة بالكلية.

ولقد أصبح الانتحـار سـمة بـارزة في تلك المجتمعـات، وصـارت نسـبته تتزايد وتهدد الحضارة الغربية بأكملها.

ولقد أقلق كـــثرة الانتحـــار علمـــاء الاجتماع في تلك البلاد؛ حيث أصبح عدد المنتحـــرين يفـــوق عـــدد القتلى في الحروب، وفي حوادث السيارات.

أما طـــرق الانتحـــار فتأخذ أســـاليب متنوعـــة؛ فهـــذا ينتحر بـــالغرق، وذاك بـالحرق، وهـذا بـابتلاع السـموم، وذاك بالشـنق، وهـذا بـإطلاق الرصـاص على نفسه، وذاك بالتردي من شاهق، وهكذا.

أما أسـباب الانتحـار فمعظمها تافهة حقـيرة، لا تســتدعي ســوى التغافــل، وغض الطرف عنهـا؛ فهـذا ينتحر بسـبب الإخفـــاق في امتحـــان الدراسة أو الوظيفـة، وذاك بسـبب وفـاة المطـرب الذي يحبه، أو هزيمة الفريق الذي يميل

إليه، وهذا ينتحر بسـبب وفـاة عشـيقته، وهذه تنتحر بسبب تخلي عشـيقها عنهـا، بل ومنهم من انتحر بعــدما تــوفي كلبه كما فعل (جاك أشـورت) وكـان عمـره 46 سنة.

بل إن هنـــاك من ينتحر بلا ســـبب ظاهر، ويبقى السبب الأول للانتحار وهو الكفر باللــه، وما يسـتتبعه من الضـنك، والشدة، وقلة التفكير في المصير.

والغـريب في الأمر أن نسـبة كبـيرة من المنتحرين ليسوا من الفقراء؛ حـتى يقال: إنهم انتحروا بسبب قلة ذات اليد، وإنما هم من الطبقـــــات المغرقة في النعيم والبعيـــدة الصــيت والشـــهرة، والرفيعة الجــاه والمنصــب، بل وينتشر في طبقات المثقفين.

ومما يلفت النظر أن أشد البلاد انحلالاً أكثرها انتحاراً.

ومن الأشـــياء الـــتي اســـتحدثوها لمحاربة التخفيف من الانتحـــــــارات

المتزايدة_ إنشاءُ مركز يتلقى مكالمـات المُقْـدِمين على الانتحـار، أو من لـديهم مشـكلة عاطفيـة، أو الـذين يعـانون من ضيق الصدر.

وهــذه الخــدمات تقــدم ليلاً ونهـاراً وبالمجان.

والعجيب في الأمر أن يكون للانتحـار مؤيـــدون وأنصـــار، حيث تكـــونت في بريطانيا جمعية للمنتحــرين، وأصــدرت كُتَيِّباً وأخذت توزعه على أعضائها الـذين يحبذون ويؤيدون حق المرضى بالانتحـار عندما يتألمون، وعندما يقرر الطبيب أن حالتهم ميؤوس منها.

وقد نَص الكـــتيب على الوســـائل السـريعة والفعالة وغـير المؤلمة الـتي يمكن أن تساعد السـاعين إلى الانتحـار على تنفيذ رغبتهم!.

فلمـاذا ينتحر هـؤلاء؟ ولمـاذا يسـتبد بهم الألم، ويذهب بهم كل مذهب؟

والجواب: أنهم فقدوا السبب الأعظم

للســـعادة، ألا وهو الإيمـــان بالله _ عز وجل_ فلم تغن عنهم حريتهم شيئاً، ولم يجـــدوا ما يطفىء لفح الحيـــاة وهجيرها وصـــخبها؛ فلا يكـــادون يحتملـــون أدنى مصيبة تنزل بهم.

فهل اطلع على تلك الحـــــــــال من يريـــدون أن تكـــون بلاد الإســـلام كتلك البلاد تهتكاً، وتوقحاً، ودعارة، وفساداً؟

وهل يريـــدون أن يكـــون مصـــير بلاد الإسلام كذلك المصير؟

إن كانوا لم يطلعوا فتلك مصيبة، وإن كانوا مطلعين فالمصيبة أعظم.

الخاتمة

هذه مقتطفات يسـيرة مختصـرة تنبه على وجوب التوبة العامة من الأمة.

ومن أراد الاسـتزادة والعـزو فلـيرجع إلى كتـــاب =التوبة وظيفة العمــــر+ لكاتب هذه الصفحات؛ ففي ذلك الكتاب تفصيل لكثير مما أجمل هنا.

فلعل في هــذه الصــفحات موعظــةً وذكــرى، ولعل الأمة تتــوب إلى ربهــا، وتحسن ظنها به _جل وعلا_ وأن تــدرك أن الصـــبر والتقـــوى كفيلان بـــرد كل عـــدوان، قـــال الله _عز وجـــل_: [إِنْ تَمْسَسْـكُمْ حَسَـنَةٌ تَسُـؤْهُمْ وَإِنْ تُصِـبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُـوا بِهَا وَإِنْ تَصْـبِرُوا وَتَتَّقُـوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُـونَ مُحِيطٌ]آل عمران:120.

وقال _تبـارك وتعـالى_: [لَتُبْلَـوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِـكُمْ وَلَتَسْـمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُـــوا الْكِتَـــابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ

أَشْـرَكُوا أَذىً كَثِـيراً وَإِنْ تَصْـبِرُوا وَتَتَّقُـوا فَإِنَّ ذَلِـكَ مِنْ عَـزْمِ الأُمُـورِ]آل عمـران: 186.

اللهم مُنَّ علينا وعلى أمتنا بالتوبة الـتي ترضـيك عنـا، وصـلى الله وسـلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

محمد بن إبراهيم الحمد
5/8/1423
الزلفي 11932
ص.ب: 460
www.toislam.org

الفهرس